

الفصل الخامس

اختبار الجَلَد

بعد بضعة أشهر من اعتناقي الإسلام، حل شهر الصيام، شهر رمضان، وهو الشهر التاسع بين أشهر السنة الهجرية. وكنت أنتظر حلوله بشيء من القلق والخوف، لأنه اختبار صعب لجَلَد المسلم وقوة احتماله، يجسد قمة وعيه وصحوته. ففيه ينبغي عليّ أن أمتنع مدة ٢٩ أو ٣٠ يوماً من الفجر إلى غروب الشمس عن الطعام والشراب والتدخين ومعاشرة الزوجة، ولكن مع ممارسة عملي كالمعتاد^(١).

عرفت الصيام أول مرة في عام ١٩٧٧، على متن إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية اليوغسلافية JAT المتجهة من بلجراد إلى إسطنبول. فلقد لاحظت أن يد جاري في الدرجة الاقتصادية لم تمتد إلى الطعام إلا بعد رفع أنية طعام بقية الركاب، وعندما حان موعد الإفطار الذي كان يتابعه بالنظر إلى ساعته من حين إلى آخر. وفي أثناء إقامتنا في بلجراد، كنا كثيراً ما ندعو رمضان رمضان، البستاني الذي يرعى حديقتنا، إلى طعام الإفطار، إذ كان يثير شفقتنا بإصراره الشديد على الصيام. فلقد كان يمتنع تماماً عن تناول أي طعام عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولقد قمت بصيام أسبوع من قبيل التعاطف معه. ومع ذلك. فإن المرء لا يتعلم صيام ٣٠ يوماً إلا بصومها فعلاً.

في بون، كان من بين المهام الموكولة إليّ إقامة حفلات عشاء لضيوف أجنب. وكان عدم مشاركتي لهم الطعام يثير حرجاً شديداً: فهل أعاني توعكاً في

(١) لتفاصيل أخرى، انظر «الصيام»، منشورات المركز الإسلامي بميونخ عدد ٥، ميونخ (١٩٧٨).

معدتي؟ أم إن الطعام الذي طلبته لهم بنفسى لا يرقى إلى مستواي؟ وفي مثل هذه المناسبات، كنت أتذكر السهولة التي كان يمكن بها الاعتذار عن عدم تناول العصير أو القهوة التركية التي كانت تقدم لي في وزارة الخارجية اليوغسلافية في شهر رمضان. وفي واقع الأمر، فإن صيام رمضان لا يصبح مناسبة تسعد المرء على مدار العام كله إلا عندما يكون في محيط مسلم، حيث يكون شهراً مشبعاً تماماً بالروحانيات.. شهر سلام داخلي وإخاء.

يشتمل الصوم في الإسلام، مثل كل العبادات، على مكونات مادية وأخرى معنوية، لا ينفصل بعضها عن بعض. ويبدأ الحرمان البدني بامتناع المرء عن تناول قهوة أو شاي الصباح. وينخفض السكر في الدم في أثناء النهار، حتى ليكاد المرء يصاب بالإغماء. ويسهل على المرء، من ناحية أخرى، أن يعرف كيف يعمل نظامه البيولوجي. فبالنسبة لي، هناك على سبيل المثال وقتان للنشاط الوفير في النهار، هما: الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة عشرة بعد الظهر. ولقد استفدت من ذلك على نحو نظامي، حيث وزعت عملي اليومي تبعاً له إلى ما ينبغي، وما يجوز، وما يمكن عمله.

وكانت المجموعة الأولى من الأعمال هي ما أقوم بأدائه بقدر الإمكان عندما يستفيد ضغط دمي من الذروة البيولوجية المخططة. فكنت أحاول أن أقود سيارتي مسافة ١٣ كيلو متراً في طريقي من مقر قيادة حلف شمالي الأطلنطي إلى مسكننا في إكسيل، وأنا في أوج نشاطي. وكنت أزيد من حذري حتى لا أعرض نفسي أو غيري للخطأ. في شهر رمضان، تزداد بالفعل حوادث المرور وبصفة خاصة عندما يحاول أرباب الأسر اللحاق بالإفطار في منازلهم. ولقد لقي خمسة من مواطنينا من ألمانيا الشرقية سابقاً حتفهم بالقرب من القنيطرة يوم ٢٥ من فبراير

١٩٩٣ ، ثالث أيام شهر الصوم ، عندما حاول سائق سيارة نقل أن يتجاوز الحافلة التي يستقلونها ، فصدمها ، فانقلبت بهم . وأرجع الحادث إلى ضعف تركيز قائد السيارة بسبب الصيام .

واليوم الثالث من أيام الصوم يوم عصب ، يكون فيه المرء في أسوأ حالاته ، ويصاب بصداع شديد تزداد حدته إذا ما استلقى ليسترخي . ومع ذلك ، يبدأ جسدنا بقدرته الهائلة على التكيف في التأقلم منذ هذه اللحظة مع المعطيات الجديدة ، فتخف حدة الصداع والإحساس بالجوع ، ويستطيع المرء أن يرى مَنْ يتناول الطعام دون أن يحسده . ومع أنني كثيراً ما أشعر في المساء بأني قد أنقصت ولا أستطيع القراءة ، وأجلس أمام شاشة التلفزيون بلا إرادة ، فإني لا أشعر برغبة في الطعام وخاصة اللحوم .



يعلن عن نهاية يوم الصوم في العالم الإسلامي بإطلاق مدفع ، وعندئذ يتناول المرء بعضاً من الماء أو من العصير ، وعدداً فردياً من التمر أو الزيتون ، ثم يؤدي صلاة المغرب شاكراً لله أن أعانه على صيام اليوم . ويبدأ تناول وجبة الإفطار في كل من الجزائر والمغرب بتناول شاي بالنعناع الأخضر ، وحساء داكن اللون هو شوربة الفريك الجزائرية ، والحريرة المغربية التي يختلف مذاقها إلى حد ما من منزل إلى آخر ، إلى جانب بيضة مسلوقة وتمر بالعسل ، الذي كان طعام الرسول ﷺ المفضل . وسرعان ما ينتعش الجسد مرة أخرى . وبعد توقف قصير ، يتناول المرء وجبة كاملة من اللحوم ، وفي المغرب من الدجاج ، ولحم الضأن المشوي ، والكسكي باللحم البقري ، وحلوى وفواكه . وكان كل ذلك يتم للأسف بسرعة

حتى إنني أعود إلى منزلي في الساعة التاسعة من دعوات للإفطار في الساعة السابعة والنصف .

يختلف مفهومي عن رمضان ، المبني على اتباعي للسنة ، عن الكيفية التي يُمارس بها في بعض البلدان الإسلامية ، ومن بينها المغرب . فالناس يميلون إلى أن يعوضوا في الليل ما فاتهم في النهار ، فيشاهدون التلفزيون ، ويلعبون الورق (الكوتشينة) ، ويحتسون الخمر أحياناً ، حتى منتصف الليل ، حيث يتناولون وجبة ثالثة (السحور) . ومن ثم ، لا يأخذ كثيرون من الجزائريين والمغاربة قسطاً كافياً من النوم ، بل إنهم لا يتمتعون في الساعات القليلة التي يخلدون فيها إلى النوم بنوم مريح من فرط إتيانهم معداتهم بالطعام . ويترتب على ذلك ، أنهم لا يلحقون بصلاة الفجر ، وبصفة خاصة في رمضان . ولا يفيدون بشيء في ضحى اليوم التالي . ومن شأن هذا أن ينمي الاتجاه الغريب نحو استبدال الليل بالنهار في رمضان .

وفي واقع الأمر ، يرتفع كثيراً استهلاك الأغذية في هذه البلدان في رمضان ، بدلاً من أن ينخفض . أما ما ينخفض بالتأكيد ، فهو إنتاجية العمل . ويؤثر رمضان على الإنتاج القومي في هذه البلدان ، كما لو كان مدة إجازة ثانية . لذلك ، فليس غريباً أن يعلن رؤساء علمانيون عرب أن بلدانهم النامية لا تستطيع أن تحتل «كسل» رمضان .

أما ما أراه عبثاً ، فكان دعوتي من قبل شخصيات رفيعة المستوى إلى تناول طعام الإفطار باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الذهب ، وكذا أن يبدأ المسلم تناول الطعام بقول : «Bon Appetit» ، أي «شهية طيبة» ، بدلاً من قول «باسم الله» على طبق طعامه المليء بخيرات البحر ، وقبل أن يؤدي صلاة المغرب . ولقد

بدالي دائماً أنه من غير المنطقي أن يصوم من لا يصلي . ولكن هذا السلوك يكشف عن حقيقة أن صوم رمضان أصبح يمارس في أقسام من عالم المسلمين على نحو يجرده من مغزاه الديني ، ويجعله جزءاً متحرراً من المدنية ، وهذا يفسر أيضاً السلوك الغريب من جانب بعض المسلمين إذ يمتنعون عن تناول الخمر في شهر رمضان ، باعتباره شهر إسلام مقابل أحد عشر شهراً للراحة من الإسلام .



يمضي يومي في رمضان في الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٤ على نحو مختلف تماماً . فأنا آوي إلى فراشي بعد صلاة العشاء ، أي نحو الساعة الحادية عشرة ، وأضبط المنبه على الساعة الثالثة والنصف أو الساعة الرابعة صباحاً ، لأستيقظ قبل بداية الصوم بنحو ٤٠ دقيقة كي أتناول ، قبل انطلاق مدفع الإمساك ، طعام السحور وأشرب كثيراً من الماء . وبعد ذلك ، أقضي ما تبقى من وقت حتى الفجر في قراءة القرآن . وبعد صلاة الفجر ، أنام ساعتين . وكان العمل في سفارتي يبدأ متأخراً ساعة عن المعتاد . وكنت أنجز بالفعل أكثر مما أنجز في الأيام العادية ، وخاصة أن العمل يشغل عن الإحساس بالمعدة الخالية . وكنت في رمضان أجلس في مآدب غداء العمل الدورية التي يقيمها زملائي من البلدان أعضاء الاتحاد الأوروبي وأمامي طبق خال . وكان زميلي الفرنسي في الرباط السيد دي كونياك يشاركني سلوكي « تضامناً » منه مع أبناء البلد المضيف ، كما كان يقول ، وهذا يعد تصرفاً سياسياً بارعاً .

كان يوم عملي في رمضان ينتهي عادة بحضور دروس دينية « دروس الحسنية » في القصر الملكي بالرباط . وكانت الحكومة المغربية بأكملها ، وهيئة الأركان العامة ، وعلماء المسلمين ، وسفراء الدول الإسلامية ، يجتمعون يومياً ، ابتداء من

الساعة الخامسة بعد الظهر في القصر الملكي . وكنا نستمع إلى تلاوة قرآنية إلى أن يصل الملك والأمراء . وكان من يلقون الدروس محاضرين مدعويين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، من بينهم مسلمون أمريكيون ، وأعلام كالشيخ طنطاوي من القاهرة . وكانوا يجلسون على المنبر التقليدي ، في حين يجلس الملك مثلنا جميعاً عند أقدامهم في مربع حولهم .

كنت أنا وزملائي المسلمون نتناوب الدعوة إلى طعام الإفطار نحو الساعة السابعة مساءً . وعندما كان دوري يحين ، كان بهو مقر إقامتي في سُويسي الواقع بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام يتحول إلى مسجد ، حيث كانت أرضه تُغطى بسجاد صلاة . ولقد صارت العلاقات والصلاة التي أقمتها في هذه المناسبات مع بعض من أعضاء الحكومة ومن مستشاري جلالة الملك ذات طبيعة دائمة وقوية بمرور الوقت .

ومن المعتاد ، أن أفقد بانقضاء شهر الصوم ما يتراوح بين ٨ و ٥ كيلو جرامات من وزني . وبتعبير أدق : فإنني أقرب من وزني المثالي .



ينطوي الصوم ، إلى جانب بعده المادي ، على بعد روحاني يصير من دونه مجرد حركات تجويع بهلوانية . وشهر رمضان شهر مُعظم ، لما له من أهمية في تاريخ العالم . فلم يشهد رمضان موقعة بدر (عام ٦٢٢م) ذات الأثر الحاسم في بقاء وتثبيت المسلمين الأوائل فحسب ، وإنا الأكثر أهمية من ذلك أن فيه ليلة القدر التي بدأ فيها نزول الوحي بالقرآن . وعن هذه الليلة أحادية الرقم التي تقع بين الليالي الأخيرة من رمضان^(١) ، يقول الله في السورة ٩٨ : بسم الله

(١) يبدأ اليوم الإسلامي بغروب الشمس .

الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ .

هذا نص يصلح للتأمل والتفكير .

لقد جرت العادة على اعتبار ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر . وإن المرء في ليلة القدر يخرج الزكاة ويقدم الهدايا كما يحدث في ليلة عيد الميلاد عند النصراني ، كما يقام فيها - كغيرها من ليالي رمضان - صلاة التراويح ، وتكثر تلاوة القرآن والأدعية . ومن ثم ، فما لم يدرك المرء في هذه الليلة مغزى الرسالة والوحي ، فمتى عساه يدركه؟! .

وصوم رمضان فرض على المسلمين . ويعدونه عبادة ، بوصفه " أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا تحتاج إلى تسويق مقنع . فالمسلم ، بوصفه عبداً لربه ، يصوم لأنه أمره بالصوم . فالطاعة هنا واجبة . ويستطيع المرء أن يكتشف بسهولة أن هذا الفرض إنما فرض من الله لمنفعة الناس .

منذ أن عادت رشاقة القوام لتصبح زياً سائداً ، راح النساء يتبعن نظاماً للتغذية تُذكر بالصوم ، كما يمكن أن تؤدي إلى نحافة مَرَضِيَّة . ومع كثرة الحديث في الآونة الأخيرة عن أضرار الكوليسترول والوزن الزائد ، ظهرت عروض مختلفة لبرامج التخسيس أو إنقاص الوزن .

ومن ناحية الصوم الإسلامي ، فإنه يفي بهذا الغرض وزيادة . فهو يؤدي ، على سبيل المثال ، إلى إذكاء الإحساس الاجتماعي حيث يشعر الصائم مرة واحدة على الأقل في السنة بما يشعر به من يرغم على الصوم في العام كله ، بسبب ما يعانيه من شح في الغذاء أو المال .

وبالنسبة لي ، لعل أهم أثر جانبي لصوم رمضان فيّ ، أنني أستطيع - في رمضان - أن أختبر ما إذا كنت ما أزال سيد نفسي أم أنني صرت عبداً لعادات تافهة ، وما إذا كنت ما أزال قادراً على التحكم في نفسي أم لا . وأتمنى أن يكون فرحاً وليس غروراً ذلك الذي أشعر به بعد انتهاء آخر أيام رمضان ، أي عند صلاة المغرب ، من أنني استطعت بعون الله أن أصومه .

ولكن ، من ذا الذي يستطيع أن يقول لي بثقة : متى يبدأ رمضان؟ ومتى ينتهي؟ ولقد يقول المرء : إن تحديد متى وأين يظهر الهلال الجديد أمر فلكي هين في أيامنا . وهو بالفعل كذلك . ومع ذلك ، فمن المؤسف أن يظل مسلمو الأرض مختلفين في أيام بدء وانتهاء صومهم ، تبعاً لكونهم أتراكاً أو مغاربة أو سعوديين . وهذا أمر من شأنه أن يضر بالصوم بوصفه حدثاً جماعياً ، وأن يعرض المسلمين لسخرية الآخرين .

ويرجع هذا الاختلاف إلى سببين : أولهما ، أن الأمة مجزأة إلى دول قومية ، ولا يكفي التركي أو المغربي أن يعرف أن رؤية الهلال ثبتت في مكة ، إذ لا بد بالنسبة لكل منهما أن تثبت رؤيته في قونية أو فاس . ويترتب على ذلك اختلاف في تحديد يوم بداية ويوم نهاية شهر رمضان ، لأن الترتيب الوضعي بين الشمس والأرض والقمر يختلف في كل بقعة من الأرض عنه في غيرها . ويتباين الاختلاف في موعد ظهور القمر في يومين متتاليين عن الاختلاف فيهما في موعد شروق الشمس ، فيبلغ دقيقتين في شروق الشمس ، في حين يبلغ خمس عشرة دقيقة في ظهور القمر^(١) .

أما السبب الثاني ، فيدركه الفقهاء على نحو أفضل . فلقد جرت العادة في

(١) انظر G.S.P. Freeman - Grenville : التقويم الإسلامي والمسيحي ، الطبعة الثانية (١٩٩٥) .

عصور الإسلام الأولى على أن تثبت رؤية الهلال بالعين المجردة، وليس بالحسابات الفلكية أو بالتنبؤات، وهو ما لم يمثل فيما مضى ولا يمثل اليوم أي مشكلة، بفضل الظروف المناخية في شبه الجزيرة العربية، واستناداً إلى ذلك، يرى بعض الفقهاء المتشددون أن رؤية هلال رمضان بالعين المجردة من شخص موثوق به تقليداً ضرورياً لا غنى عنه، وأن الحسابات الفلكية غير كافية في هذا الشأن. ويعادل رفض التواريخ الفلكية عدم الأخذ في قانون العقوبات بدليل مبني على أساس غير قانوني^(١).

يتمسك المتشددون بالإجراءات الموروثة لتحديد بداية الشهر القمري، حتى وإن حالت الظروف المناخية دون رؤية الهلال الذي يكون موجوداً بالفعل. ويمكن أن يترتب على ذلك، كما حدث في عام ١٩٩٤، أن يفطر المرء في المغرب متأخراً يومين عنه في السعودية. وعندما نقلت الاحتفالات بعيد الفطر في مكة، عبر وسائل الإعلام. في ثاني أيام الصوم الزائدة في المغرب عنها في السعودية، رأى بعض البسطاء في المغرب أن هذا الاختلاف أمر مؤسف!! أليس من الممكن حقاً أن تُوحد مواعيد شهر الصوم في أنحاء العالم الإسلامي كافة بناءً على الحسابات الفلكية بالقياس إلى مكة، أسوة بما هو متبع في حالة تحديد مواقيت الحج، ومن ثم أيضاً عيد الأضحى؟!!

وعندما يتناول المرء يوم عيد الفطر أول قدح من القهوة، في أول إفطار منذ ٢٩ أو ٣٠ يوماً، يشعر بألذ مذاق. وعند صلاة العيد في المسجد، لا يلتقي المرء إلا بأناس تشع منهم إشراقة داخلية. ولعل مما يبدو غريباً، وإن كان حقيقة، أن يشعر المرء بالجوع عند الظهر لأنه تناول طعام الإفطار، في حين ينسى طعام الغداء في رمضان على الرغم من أنه لم يتناول طعام الإفطار.

(١) انظر عبد الحميد بتشيكو: «مواقيت الإسلام»، (باللغات الإنجليزية، الفرنسية، العربية) (١٩٩١).

وهكذا تعود الأيام سيرتها الأولى .

إنني أحتفظ لنفسني بما أسميه «مفتاح رمضان» . فعندما تكون هناك ضرورة، بين الحين والآخر، على مدار العالم، لترك وجبة أو وجبتي طعام، أضغط ذهنياً على هذا المفتاح الذي يعيدني نفسياً إلى رمضان بالوضع نفسه والشعور نفسه . وسرعان ما أحتمل جوعي، ولا أعيره اهتماماً .

إنني أترقب رمضان المقبل بسعادة غامرة، حتى وإن لم يصدقني في ذلك أحد .